الغبـي

"وددت لو كنت معدماً أحصل على قوت اليوم بعرق جبين النهار على أن يكون ولدي غبيا".

هكذا فكّر الأب وهو ينظر إلى فتى تبدو عليه مخايل الـذكاء، ينـاقش ويجـادل ويتحمس لرأي ويرفض آخر..

واستفحل في نفس الأب الألم عندما سمع الفتى يقول:

- "والله إني لآسف لدقيقة واحدة تذهب سدى بغير أن أتعلم فيها شيئاً جديداً.. وكم تعوقني الاضطرابات عن الإستمرار بالدراسة وحدي. "أما يـستطيع الإنـسان أن يكون أستاذ نفسه ومربيها ان أقفلت أمامه أبواب المعاهد والتعليم؟"

- "أما أنا فلي ولد يشكر الله ألف مرة أن قد أتيحت له فرصة الهروب من عنـاء الدرس ليلهو ويلعب.. أنظر إليه أتراه يمسك كتاباً؟ أتراه يبـالي أن يـستفيد مـن الوقت المضاع؟. دراسته معاكسة إخوته أو أولاد الجيران.. يجر أذيال الخيبة في نهاية كل سنة دراسية.. يتكل علي ويعتمد على أموالي.. أفترى يـدوم للإنـسان سوى علمه وشخصيته؟ كل ما يملكه معرض للزوال، لأن تسلبه إياه الحياة كمـا تؤكد لنا آلاف الحوادث.. أفتراه يقوى على بناء نفسه من جديد إن صدمته الأيام؟ إنه إبني، ولدي، قطعة من كبدي.. لعلي أكره أن أرى بين الناس من يفوقني، أما ولدي فأريده أفضل الناس وأنجح الناس..

يحسب تأنيبي له وسخطي عليه كراهية مني وتحاملاً، ولا يدري أنني لا أفعل ذلك إلاّ لأثير فيه معنى الكفاح فيحقق ما أنتظر منه من أعمال. "

والتفت إلى ابنه متوتر الأعصاب..

- "تعلم.. تعلم منه أيها الغبي.. ما الفرق بينكما حتى يكب علـى درسـه وتلهـو أنت؟.. أأدفع الأقساط والتكاليف المدرسية سدى ولا أرى منك نتيجة؟"

وأطرق الابن مستعر الغضب حاقد النفس كسيرها.. "أيهينه أبوه أمام زائرغريب؟" أما الفتى فلقد أدرك أية مشكلة تثير السخط في ذلك البيت، وكره أن يخوض الأب أمامه في تأنيب ولده وذكر موقفاً محرجاً مماثلاً وقفه الفتى يوماً وتجددت في نفسه

عذابات تلك اللحظة وقال في نفسه "أيها الأب انك تسير بولدك الذي تحب علـى شفا هاوية سحيقة دون أن تدري".

ورأى أن يحذر الوالد بلباقة حتى لا تزلّ قدمه وتقع الكارثة.

وقال – "ليرحب صدرك يا عماه، فإن كنت تظن ولدك لن يتغير له حال فاسـتمع إلى هذه القصة:

"أنت غبي"

لكثرة ما لقب بالإسم في المدرسة والبيت صدقه وفقد ثقته بنفسه.

كان يجلس الساعات الطوال في مقعد الدراسة يستعرض الإهانات التي وجهت إليه من أبيه أو من أستاذه فيشرد ذهنه ولا يستطيع اقتناصه وتركيزه. التدريس رتيب ممل، كريه المذاق، جاف يغص به ألف غصة.. ويزيد ثقله عليه أن المدرسين لا يهتمون به ولا يشجعونه. وكان في الصف صفراً إلى الشمال، فيجلس أمام مائـدة الدراسة وقد فقد الشهية.. ويحدث أن يوبخه أحد الأساتذة فتسود الدنيا في عينيه.. وهو لفرط حساسيته لا يقوى على طرد الإحساسات اليائـسة بـسرعة، فتمـشي الساعات تلح في طعنه لا يفهم ما يقوله الأستاذ وإن بح صوته ويحدث أن يـسأله عما فهم من الشرح فلا يقوى على الإجابة وينتهي التوبيخ بـ "اجلس أيها الغبي.. لا فائدة منك ترجى"؟

لا فائدة منك ترجى.. أحقاً أيها الصبي؟ أحقاً أنت غبي لا تبلغ من الذكاء مستوى من حولك؟ ولكن لا.. كثيراً ما يجيب زملاؤك على أسئلة جوابها يدور في خلدك، ولكنك لا تثق بنفسك فترفع اليد، ولا تثق بنفسك إن جرؤت ورفعت اليد وسـئلت، فيخونك اللسان ويتلعثم بغير صحيح الجواب فما السبب في كل هذا؟

ألأنك تعلم رأي الأستاذ والطلاب فيك يجفل قلبك ويشلّ حركة لسانك؟ حـاول أن تدرس جيداً وتقوم بواجبك فلعل هذا الشؤم يذهب عنك وتتغير الآراء بمقدرتك.

ولكن كلما حاول مني بالخيبة.. ولم يجد فرقاً كبيراً في أن يجد أو أن لا يجد.

وإن كان النجاح يجر النجاح، فالفشل يجر الفشل. وهكذا صدق الفتى ما قيل عنه، فثبطت همته وفتر حماسه وأغلق أذنه عن الكلمات الجارحـة ولـبس مـن قلـة

اللامبالاة جلد التمساح، ودرع السلحفاة. فما عادت السهام المسمومة تؤثر بـه أو تسيل دموعه..

وحار أبوه وأساتذته.. أي سبيل يسلكونه مع الفتى ليصلح ويقوم اعوجاجه؟

وكانت مرارة عظمى للأب أن يرى ابنه وقد علّق عليه الآمال فـي مثـل ذلـك الغباء.. وكان تنغيصاً له أقلق أيامه ولياليه.. ولم يزره صديق إلاّ جرح ابنه أمامه وأظهر ما استتر من عيوبه وتقصيره، فانزوى الفتـى أولاً ثـم عـاوده شـعور الإستعلاء الكامن في كل نفس إنسانية فسد نقصه بمعاكسة إخوته وزملائـه فـي المدرسة وأبناء الجيران، والكيد لهم حتى ضج منه الجميع وانهال عليه كثير مـن الضرب بعد أن عجز الكلام الجارح القاسي عن النيل منه.

وزاد وجه الأيام جهامة، ولولا خيط من النور أضاء قليلاً حياة الفتى لانجرف في تيار الشقاوة والإجرام فلقد أحب في خفاء طفلة في الحادية عشرة، شقراء مـوردة الخدين، تتردد على منزلهم للدراسة والاستظهار واللعب مع أخته، زميلتهـا فـي الصف وجارتها في السكن.

وتولدت في نفس الفتى مشاعر مختلفة وغمرته نزعات جديدة: طمـوح ونزعـة الإدهاش من حوله بقواه الخارقة. وغرق في قـراءة قـصص أرسـين لـوبين والقصص الغرامية العنيفة. وعادت إليه كرامته فحاول أن يقوم من اعوجاجه حتى لا يسمح لأحد بإهانته أو تحقيره.. كل ذلك ليكـون جـديراً بإعجـاب محبوبتـه الصغيرة..

ولم يشعر أحد باليقظة الجديدة التي حولت نفسية الفتى وكل ما لحظوه أنه استطال بغير عقل ولا فهم.

ولم تكن الأيام لتخلو من مشاكل يدفع إليها دفعاً بعد أن عـول علـى تغييـر مـا بنفسه.. فلا أحد يحترم حقوقه في الخلوة بنفسه، فهم يتدخلون في كل شـأن مـن شؤونه، كبيراً أو صغيراً مما يعنيه وحده.. والكل يستهين به ويسخر منه ويستثير غضبه حتى الصغير من إخوته يجترئ عليه، وهو ناري الطباع متيقظ العاطفـة قوي الإحساس بشخصيته الجديدة.. وأصبح يشعر بجو المنزل خانقاً لا يـستطيع

العيش فيه، وتمردت نفسه وكره أقرب الناس إليه، لا يجـد لروحـه صـدى ولا للراحة إلى نفسه سبيل.

وبقي ذلك الشعور في نفسه كامناً حتى جاء يوم فانفجر كبارود اشتعل فيه النار...

جرؤ أبوه على إهانته وضربه أمام من؟ أمام محبوبته الصغيرة ولم؟ لأنه فاجـأه يقرأ قصة غرامية.

صاح مستعر الغضب كالمجنون:

- "كفّ يدك أيها الرجل.. إنني لم أعد طفلاً أمامك انني حر بكل ما أفعل.. ولـن أبقى دقيقة واحدة في هذا المنزل المشؤوم"

وسأله الأب ساخراً:

- "إلى أين؟ إلى الطرقات تنام على أرصفتها كالكلاب؟"

- "أنام حيث أشاء.. لا يعنيك من أمري شيء سأهجر المدرسة والمنزل وأعمـل ولو براتب زهيد.. "

وطرق الباب وراءه محموم الغضب.

عند الظهيرة، والشمس لاهبة محرقة راح الفتى يخبط في الطرقـات والـشوارع يتصبب من جبينه العرق يطلب عملاً..

- "بكل أسف يا سيدي"

- "أتحمل شهادة أيها السيد؟"

- "تستطيع إيجاد عمل لك أول السنة الجديدة. "

أقبل الظلام ينشر على الكون أجنحته وتلألأت في سماء المخازن وعلى واجهاتها نجوم الكهرباء وسار الفتى لا يلوي على شيء، وقد حلكت الدنيا في عينيـه وقـد خذله التوفيق.

إلى أين المسير؟ إنه للمرة الأولى في الحياة لايعرف وجهته.. أيجد الإنسان غيـر منزله ملجأ يأوي إليه؟.

وقف إلى حاجز النهر في المدينة يسائل نفسه "من تراه الملوم في تـوتر حياتـه العائلية وما الداعي إليه؟" وللمرة الأولى فكّر في أفراد عائلته وفي نفسه منـصفاً غير متحيز يحلل دوافعهم واحداً واحداً.

إن تجربة اليوم جعلته يدرك أن العالم معترك نضال لا يبرز فيه إلاّ مـن تـسلّح بمقدرة ومعرفة وعلم، وأدرك أنه بإهماله الدراسة يعد نفسه لأعمال متواضعة جداً أمام طموحه.. وأدرك أن ما يقرأه من قصص لن تحقق أمانيه إلاّ في الخيال.. أما الواقع فله ثمنه من الإجتهاد والدرس المجدي حقاً.. وأدرك أن والده على حق ولو أنه سار في طريق خطر في أسلوب معاملته له، فأساء من حيث يريـد الخيـر، وساءل نفسه: "أما يجاهد والده ليوفّر عليه نفقات الحياة وتكاليفها مـع أن واجبـه نحوه قد انتهى بعد أن اشتد عوده وكمل نموه وأصبح قادراً للاعتماد على نفـسه؟ أفيقوم هو بواجبه نحو والده بل نحو نفسه؟ كل ما يطلبه منه الاجتهاد ليكون ناجحاً في عمله وحياته وهذا مثار الخلاف، ولو حقق أمله لأحلـه فـي نفـسه المكـان الأعز..

ولكن كيف يحقق أمل والده، ومن يقومون بمهام تدريسه لا يحببون له العلم فـلا يستسيغه ويملأون ذاكرته ويحشونها بما تضيق بها.. آه لو يستطيع أن يفهـم لـم قضي على الإنسان أن يدخل سجناً يدعى مدرسة ولم يجلـد دماغـه كـل يـوم بنظريات ودراسات لا يهتم بها ولا يؤمن بأنها ستساعده في حياته بكثير أو قليل.. هنا في صدره أشياء وأشياء يود لو يتعلمها.. آه لو يجد شخصاً مخلصاً يوضح له رغباته ومطامحه ويوجهه التوجيه الحسن. "

وساءل نفسه "لم نتعلم؟ أما لنصبح خيراً مما نحن في طباعنا وأقدر على التمييـز والفهم أمام مشكلاتنا ولنعد أنفسنا للعمل الذي يلائمنا وينتظرنا في معترك الحياة؟ ماذا يرغب أن يكون؟ وماذا يحب أن يتعلم؟ سؤالان أجهدا فكره ولم يجـد لهمـا جواباً.. إن ميوله غير جلية وغير مركزة.. كل ما يريـده أن يكـون شخـصاً ذا أهمية في الحياة، يحترمه الجميع ويفرض شخصيته، يكسب المـال والأصـدقاء وينال الحب ويوفق فيه وهو يفكر في أبنائه في المستقبل، ويريد أيضاً أن يعـرف فيم إذا كانت هناك حياة أخرى أو أن الموت نهاية كل حي.. وهـو يطلـب هـذه الأمور بإلحاح بالإضافة إلى الأمور الأولية من صحة وطعام ونوم فهل تـساعده المدرسة في أهم ما يشغل باله ووالده يريده أن يكون ناجحاً ولكنه يخطئ معنـى النجاح إن كان ما يريده منه دراسة المواد المدرسية والتفوق على زملائـه فـي

الصف ونواله شهادة ما.. وذكر ما كان من أمر النهار فشعر بثورة على العائلـة، وعلى المدرسة، وعلى المجتمع.. آه كم يود لو يكون شخصاً هداماً شديد التدمير!"
ثم عاد إلى نفسه بعد صراع.. لا غنى له عن معونة والده ووجوده في منزله يوفر عليه كثيراً من المشقات حتى يصاب عوده.. فإن أراد حياة عائلية غيـر متـوترة عليه أن يرضي رغبات والده، ورغبات أساتذته، ورغبات المجتمع.. وما يضيره أن يجتهد مادام الجميع يقدسون الشهادة أعظم تقديس؟ فربما تنجلي رغباته وتتضح ميوله وما يضيره أن يدرس ويفهم جديداً؟ فربما كان كرهه للدراسة ناتجاً عن عدم فهمه لها وعدم تذوقه إياها وربما كان فيها له خير كثير أوله أنها تحدد أهدافه نحو العمل الذي سينهجه في المستقبل..
وصفا شعوره كثيراً عن قبل، حين فكّر تفكير العاقل الذي يتلاءم مع الظـروف.. وأنبه ضميره عما أفلت من كلمات نابية أمام والده ورأى أن يستميحه عذراً.
استدار الفتى إلى الطريق وقد خفت فيه حركة المرور ونظر إلى سـاعته فرآهـا تقارب الواحدة فاضطرب. أنه لأول مرة يهجر فراشه في مثل تلك الساعة.. مـا حدث يا ترى في البيت؟
ومد يده إلى جيبه فما وجد نقوداً.. إذن سيذهب إلى البيت سيراً على الأقدام.
وجد في السعي حتى كلّت قدماه إذ توقفت سيارة وفتح بابها وجذبه مـن ذراعـه بحنان يد رجل إنه أبوه.. لم يفاتحه بكلمة، بل طوقه بعطف خالص أواه كـم هـو مدين إلى تلك اللحظة التي ارتوت فيها روحه الظامئة للحنان الأبوي!.

* * *

وابتدأ نجاحه المدرسي في يوم طلب فيه أستاذ اللغة العربية إلى طلابـه كتابـة موضوع إنشائي بعنوان "حادثة كان لها أثر في حياتك" كتب الفتى قصته بأسلوب مؤثر.. لديه ما يتحدث عنه فلن تعوزه الكلمات للتعبير.
واستمع الطلاب بشوق وانتباه إلى أستاذهم يلقي على مسامعهم أحسن موضوع فاز بإعجابه وتهامسوا فيما بينهم "من تراه يكون كاتبها؟"
- "كاتبها طالب اشتركنا بغير وعي منا في القضاء على مواهبه أتحبون معرفته؟"
- "طبعاً طبعاً يا أستاذ"

- "إذن قف ليرى الجميع الطالب المصمم على النجاح وتطلعت النـ واظر بدهـشة واستغراب وحسد وغيرة إلى "الفتى الغبي"!

ساد السكون فترة من الزمن كل واحد تضطرب في مخيلته الأفكار حسب موقفـه واسترسل الزائر بقوله "لعلكم تحبون أنتم أيضاً التعرف إلى الفتي الغبي"

وسأله الأب بلهفة "عمن يكون؟" فأجاب الفتى الغبي!. حسناً.. إنه... إنه أنا بالطبع!

وأضاف: - إنني اليوم أكتب قصصاً قصيرة لأنشرها وأتمنى أن يـشتد عـودي وأصبح ذات يوم كاتبا قصصياً بارعا!!!

* * *